الرؤيا * الشعرية عند ابي الشيص الخزاعي (١)

د . زهير أحمد المنصور
استاذ مساعد
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب ـ جامعة مؤتة

إن مصطلح الرؤيا من المصطلحات النقدية التي لم تتسع إلا في النقد الحديث، ولذلك فان تطبيقه على الشعر العربي لم ينل شهرة كافية ولم يتسع نطاقه فبقي في دائرة محدودة ، خلا بعض الدراسات ـ وهي قليلة ـ التي كانت هادياً للباحث كدراسة محيي الدين صبحي « الرؤيا في شعر البياتي » ودراسة د. محمد الفارس « الرؤيا الابداعية في شعر صلاح عبد الصبور » ودراسة د.عبد القادر الرباعي «الصورة والرؤية في شعر زهير بن أبي سلمى». وقد كشفت هذه الدراسات عن تعريفات متنوعة للرؤيا ، ولكنها تكاد ـ في الغالب ـ تتفق على ان الرؤيا هي تعميق نظرة المبدع في الحياة لمحاولة فهم ماضيها ومستقبلها وتقديم فلسفة واضحة عنها في قصائد لاعتقادهم ان الشعر لا يؤثر عن طريق الفكرة أو الصورة، بل بواسطة الرؤيا لان الرؤيا قد تكون صورة أو نظرة للعالم أو تبصرا في مصير الانسان أو تقييماً للصراع بين الخير والشر أو كل ما هو تعبير من الكاتب عن قسم من فلسفة قصائده، وهي

(*) يدل مصطلح الرؤيا على الرؤية الداخلية للشاعر وتختلف عن لفظة (الرؤية) لانها تشير الى الرؤية البصرية وحدها

(١) أبو الشيص الخزاعي : محمد بن عبدالله بن رزين الخزاعي . انظر في ترجمته اشعار ابي الشيص وأخباره ، د. عبدالله الجبوري ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤. وانظر أبو الشيص الخزاعي حياته وشعره ، زهير المنصور ، رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة اليرموك ، ١٩٨٥

في الوقت ذاته تجربة جمالية تعتمد على تنامي استبصار القارىء في هذه الرؤيا بغية التماهي النهائي مع وعي الشاعر »(١) .

وما دامت الرؤيا الشعرية للشاعر هي نظرية ورؤية قوامها اللغة ذاتها تكشف عن فلسفته وفهمه للحياة فهماً يمنحها صفة الشمولية والتفرد التي يسعى الفنان لتحقيقها من خلال عمله الادبي لذلك فهي تعبر عن اللاوعي عنده الذي تتولد من خلاله بناه الفكرية المشحونة بمشاعره الخاصة ، هذا التولد يعمل على خلق وحدة تكاملية للقصيدة يعيشها الشاعر عند تعرضه لمثير قوي ، هذا المثير هو الحياة بوجوهها المختلفة وبما تحمله في ثناياها من تناقضات ، فيعمل الشاعر على وضع تصوراته لهذا الواقع المعاش أو يقدم اقتراحات تنبع من واقعه الاجتماعي « لان أعظم قدرة للشعر هي قدرته على التفسير ولا اعني بذلك القدرة على بسط أسرار العالم أمامنا بوضوح وإنما القدرة على معالجة الأشياء بطريقة تثير فينا الاحساس بالنسبة للاشياء الخارجة عن ذواتنا في جوهرها »(٢) .

إن مهمة الشاعر لم تعد مقصورة على اختيار كلمات والفاظ ينقل بها أفكاره ويعبر من خلالها عن تجاربه بل إنه : منشيء القوانين ومؤسس الحضارة ومخترع فنون الحياة فلا يقف عند رؤية الحاضر ولكنه يبصر المستقبل في الحاضر وكما يقول بروست : « إن جلال الفن الحق ... إنما

(١) الرؤيا في شعر البياتي ، محيي الدين صبحي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص٢٢. وانظر الرؤيا الابداعية في شعر صلاح عبد الصبور ، د. محمد الفارس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص١٠ . وانظر الصورة الشعرية ، د. ساسين عساف ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢، ص٢٢ . وكذلك الصورة والرؤيا ، د. عبد القادر الرباعي ، أبحاث اليرموك ، المجلد الاول ، العددان الاول والثاني ، ١٩٨٣ ، ص ٧٩ .

(٢) النقد الموضوعي ، د سمير سرحان ، الهيئة المصرية العربية للكتاب ، ١٩٩٠ ، ص٦٨. وانظر البلاغة الاسلوبية،د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ص ١٥٧ . والتركيب اللغوي للأدب ،د. لطفي عبدالبديع ، دار المريخ للنشر ، الرياض، ١٩٨٩ ، ص ٦٠-٦١ .

يكمن في اعادة اكتشاف الواقع والسيطرة عليه مرة أخرى ووضعه أمام أعيننا »(١) . وهذا يدعونا إلى القول بأن الشاعر الرؤيوي هو الذي يستطيع ان يكون كل شيء ليكون شيئاً فهو « العجوز والشابة والمرأة السليطة والمجنون والسكران والعبد والوبش في أفعالهم أوكلامهم ولذلك قال أرسطو « إن الشعر نابع عن موهبة أو عن ضرب من الجنون »(٢) .ولكن الاديب الرؤيوي بهذا المفهوم لا يمكنه ان يؤدي دوره ويلبي حاجات عصره ليخلق عملا فنياً عظيماً يحرك قراءه بل ويسيطر على خيالهم فتتحد تجاربهم مع تجاربه إلا إذا كانت المعاني التي يبحث عنها موجودة في عصره ومقبولة لدى جمهوره الذي يسعى لكسب رضائه ونيل ثقته « لان القارىء شريك ايجابي في اعادة خلق شعري لا يتم إلا به »(٣) . ولذلك حتى تكون رؤياه ابداعية عظيمة لا بد من ان يتوفر فيها عاملان كما يرى أرنولد :الطاقة الابداعية الكامنة في الفنان ، والطاقة الثقافية الكامنة في العصر ولا بد من التقائهما فالرجل لايكفي بدون العصر ، والطاقة الابداعية لكي يوفق الرجل في ممارستها لا بد من وجود عناصر معينة ، وهذه العناصر لا تقع تحت سيطرتها »(٤) . وهذا يحتم على الشاعر ضرورة معرفته بالحياة وأسرارها ومكنوناتها كما يجب عليه ان يعرف العالم من حوله معرفة دقيقة تؤهله لتصويره وعرضه أمام أعيننا شرائح تكشف عن حس مرهف عند الشاعر لان الشعر ليس فنا وصفيا وإنما هو فن يعرض حياة الانسان الداخلية عن طريق تصويره اتصاله بباقي الموجودات(٥) .

إن الشاعر الرؤيوي هو الذي يحاول تغيير العالم بخلق عالم من صنعه وبذلك ترتقي مهمة الشعر من مهمة تعليمية مباشرة إلى ان يقترب من مهمة

(١) دائرة الابداع ، د. شكري عياد ، دار الياس العصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص٧٦.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .
(٣) التركيب اللغوي للأدب ، ص ١٧٤ . وانظر سوسيولوجيا الأدب ، روبيرا سكاربيت ، ترجمة آمال انطوان ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ ، ص١٣٦ .
(٤) النقد الموضوعي ، ص٤١ .
(٥) المصدر نفسه ، ص٧١ .

الرسل والأنبياء فيقوم بعملية تطهير لهذا العالم وتخليصه من الأمراض والأوبئة بموهبة وطبيعة قادرة على التغيير لانقاذ الجماعة من مرض خطير هو ما يسمى فساد الضمير (١). وهذا لا يتحقق للشاعر والا بجهد كبير يشبه جهد الصوفي بالتدرج نحو المعرفة الكاملة (٢) . إن الابداع الشعري عمل ذاتي ينبع من داخل الشاعر يتكون من خلال رؤياه الواضحة فيعبر عنها بعد ان تعيش في لحمه ودمه ليتمكن من تصويرها باحساس صادق ومرهف فاخلاص الشاعر لتجربته هو أول شيء يضمن له المضمون الاخلاقي في القصيدة ... وهذا الاخلاص للتجربة هو الذي يوفر للقارىء الاحساس بجدة الاشياء في الطبيعة والعالم الخارجي كما يوفر له أيضاً الاحساس بصلة الاشياء الوثيقة به وبوجودها داخل بعد مكاني وزماني معين يكسبها أهمية تتعدى أهميتها الحسية »(٣) :

إن تجربة أبي الشيص الخزاعي جعلته يشكل رؤيا شعرية خاصة به انخلت من ثقافته وتجاربه الخاصة مصدرها الأساس ، فعملت هذه المصادر على استجلاء بعض المواقف عنده منها :

١ — الحياة والموت :
٢ — الزمان والمكان :
٣ — الخير والشر :
٤ — الحب والفراق :

الحياة والموت

لقد أحب الشاعر الحياة وأقبل على ملذاتها وصورها البهيجة ، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أنه كان يعيش في عصر لهو ومجون وكان من غلاة الشيعة

(١) الأدب والدولة ، احسان سركيس ، دار الطليعة ، بيروت، ط١، ١٩٧٧ ، ص١١٢.
(٢) دائرة الابداع ، ص١١٢ .
(٣) النقد الموضوعي ، ص٧٠ . وانظر النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣٨٦ .

التي تدعو إلى تحليل المحرمات (١). فأغرته الحياة الدنيا فمدحها وذم الموت لانه رأى أنه قاهر للذاته التي يسعى اليها، وهذا ما جعله يفشل في تحقيق توازن او تكافؤ بينهما ، فاكثر من ذكر الحياة ووصفها والدعوة إلى الاقبال عليها قبل فوات الاوان ، ولكنه في حديثه عن الموت كان حديث المتشائم فلم يشر إلى حساب او عذاب ، لم يكن يخاف الموت حتى يعدله وإنما كان يرى فيه نهاية حتمية طبيعية للبشر (فليس من الردى بد)(٢) بعد ان يقتنص الانسان ما يستطيع من زينة الدنيا ، ولهذا لم يفكر به بل غابت عن ذهنه صورته واشكاله .

لقد آمن الشاعر — على الرغم من حبه للحياة — بتقلبها وحذر منها فليس لها ثبات على حال :

فادرجهم طيّ الجديدين فانطووا كذاك انصداع الشعب ينأى ويقترب(٣)

ولكن هذا الايمان لم يمنعه من ان يعطي نفسه هواها فلم يتورع عن المجاهرة بالعصيان واقتراف ما حرم الله ، فاغمض عينيه عن الاخرة وعن مصير الانسان فيها ، وهذا الاغماض ليس غريباً على بعض الشعراء في العصر العباسي ، عصر المجون واللهو «فوجدت في هذا العصر طبقة من الشعراء لايتسترون في معصية ولا يكفون عن فاحشة فيأخذون اللذة حيث وجدوها ، ولا يخشون في ذلك ديناً ولا خلقاً (٤) .

ان نشأة الشاعر الكوفية كانت من العوامل التي ساهمت في صرف الشاعر إلى الحياة ، فهي بيئة عرفت باديرتها وجمالها وهوائها العذب وكثرة دور اللهو والمجون فيها (٥)، فاحب الحياة واحب الشباب لأنه حياة وفتوة ورابية خضراء .

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ، د. يوسف خليف ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٠ .
(٢) أشعار أبي الشيص ، د. عبدالله الجبوري ، ص٥١ .
(٣) المصدر نفسه : ص٣٤ .
(٤) حديث الاربعاء ، د. طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ط١٢ ، ١٩٢٥ ، ٢ : ٣٦ .
(٥) حياة الشعر في الكوفة ، ص٢٢٠ .

وعهدي بها غنّاء مخضرة الرُّبى يطيب الهوى فيها ويستحسن اللّعب(١)

ولكن احساس الشاعر بلذة الحياة وبهجتها لا يكتمل الا بالعلاقة والتوحد والاندماج مع الاخر الذي هو عنده المرأة التي تمثل العطاء المستمر والخصوبة الدائمة لانها صورة من صور الدنيا الجميلة والغناء واللهو :

تخالسني اللذات أيدي عواطلٍ وجوف من العيدان تبكي وتنتحب(٢)

كما تمثل التوحد عنده ايضاً في لحظة الاستقرار الذاتي مع نفسه، تلك اللحظة التي لا يحس فيها الا اذا توحدت مشاعره مع الاخرين وتواصلت افكاره معهم على مستوى الصعيد الجماعي ليس على مستوى الفرد :

ما كان اخصب عيشنا بك مسرة ايام ربعُك اهل مانُوسُ (٣)

ولان الشاعر لا يؤمن إلا بالمحسوس الذي يتمثل في حصوله على اللذة التي يسعى اليها ويبحث عنها ، ، نراه يحدد رؤياه بعوالم مادية ملموسة ، فليس الحياة الا لحظة سريعة الزوال يغتنمها الانسان ويمارس فيها نشاطه الابداعي ثم يعود بعدها إلى طبيعته ، وهذه اللحظة عنده كأس خمر يشربه في الليل من ساق مخضب :

وكأس كسا الساقي لنا بعد هجعةٍ حواشيَها ما مجّ من ريقه العنب

سقاني بها — والليل قد شاب رأسه غزالُ بحناء الزجاجة مُختضب(٤)

كما تنعكس هذه اللحظة في صورة امرأة جميلة تصحبه ويصطحبها في مجلس لهو مجون :

أميل إذا ما قائد الجهل قادني اليه وتلقاني الغواني فتصطحب(٤)

كما جاءت هذه اللحظة أيضاً في شجرة مورقة الاغصان، مخضرة الربى ، يتمتع الانسان بجمالها وتزول هذه المتعة بحكم ظروف خارجة عن إرادة

---

(١) أشعاره : ٣٤ .
(٢) أشعاره : ص٣٦ .
(٣) أشعاره : ص٧٠ .
(٤) أشعاره : ص٣٥ .
(٥) أشعاره : ص٣٦ .

الانسان فتصبح هذه اللحظة من باب الامنيات والذكريات :

فيا عيشنـا والهـوى مـورق له غصن أخضر العـود دان (١)

ولكن مبدأ اللذة الذي يعيشه الشاعر لا تنفي عنه التفكير في نهائية الموت وحتمية العالم لان الموت يتبع مع الجميع سياسة ديمقراطية تقوم على المساواة المطلقة فلا يعرف التمييز بين عباقرة وسوقة ... ولكن فهم شاعرنا للموت لم يرتق إلى التفصيل في صوره الغيبية لمصير الانسان بعـد الموت والحساب والعذاب اللذين ينتظران الانسان بل كان مجرد ردة فعل آنية قصيرة يحس بها عند انطفاء اللذة، فيرى فيه الحرمان والقهر والاضطهاد لرغباته الدنيوية.

فكم من ميتةٍ قد مـت فيهـا ولكن كان ذاك وما شعـرت (٢)

فشكل رؤياه من خلال هذا الاحساس البسيط بأن الموت نهاية البشر وحتمية مؤكدة . ولذلك فقد رسم له بعض الصور الموحشة لأنه في رأيه كريه ومزعج، فهو نذير شؤم فكان الموت يساوي الشيب الذي يعد نذيراً لصاحبه:

خلـع الصبـا عـن منكبيـه مشيـبُ فطوى الذوائبَ رأسه المغضوبُ

نشر البـلى في عـارضيـه عقاربـا بيضاً لهـن على القرون دبيبُ (٣)

لأن الشيب موت دنيوي يمنع صاحبه من ممارسة هواه ويحد من انطلاق ذاته الشهوانية ويقيد حريته «لأن الحرية لا توجد إلا بعيداً عن الموت »(٤) . فلا يستطيع مواصلة الغواني واصطحابهن :

لهـا عـن صلـة البيـض نذيـرُ لـذوي العقـل

مصابيـح مشيـبٍ و سـ متنـي سمـة الكهـلِ (٥)

(١) أشعاره : ص١٠٦ .
(٢) أشعاره : ص٤٦ .
(٣) أشعاره : .ص ٣٠ .
(٤) الموت في الفكر الغربي ، جاك شورون ترجمة كامل يوسف حسين ، سلسلة عالم المعرفة العدد السادس والسبعون ، ١٩٨٤ ، ص٦ .
(٥) أشعاره : ص٩٩ . وانظر ص١٠٩ .

كما كان الشيب قاهراً ومانعاً من شربه الخمر وعدم معاقرتها ، فهو ايضاً موت للذة وبحث عن الآلم :

نهـــى عـــن خلّـــة الخمـــر بيـــاض لاح في الشّعـــر (١)

كما صور الموت في صورة غراب موحشة ، هذا الغراب الذي يعد رمز شؤم وخراب :

وراجعـــت لمـــا اطـــار الشبـــاب غرابان عن مفـــرقي طائران (٢)

كما يرى على انه انقضاء ساعة الانس والبهجة وبالتالي يشكل الموت رمزاً للانعزال واندثار التجمع البشري الذي عبر عنه من خلال خلو الديار من اهلها ، فاصبحت ملعباً للرياح والرعود والبروق ، ومكاناً تأنسه الوحوش :

دارٌ جـلا عنها النعيـم فـربعهـا خلق تمرُّ بـه الرياح يبيـسُ

فسقـاكِ يـا دار البـلى متـجـرّفٌ فيـه الرواعدُ والبـروق هجـوم

انس الوحوشُ بها فليـس بربعهـا الا النعـامُ تـروده وتجـوس

ربـع تربـع في جوانبـه البـلى وعفـت معالمـه فهن طموس (٣)

ولأن الشاعر لم يحس بالموت الا ذاك الاحساس الفطري البسيط ، لانصرافه إلى ملذاته ورغباته الدنيوية ، فليس غريباً عليه ان يصيب الذنوب انى كانت دون خوف من حساب وعذاب فلم يتورع عن ارتياد مواطن الجهل ، انما الذي جعله ورعا هو كبرسنه وعجزه عن القيام بما كان يقوم به ايام الشباب :

أُصيـــب الـذنـوب ولا اتقـى عقـوبة مـا يكتـب الكاتبان (٤)

وقوله :

فـورعنـــي بعـد الجهـالـة والصبا عن الجهل عهد بالشبيبة قد ذهب (٥)

---

(١) أشعاره : ص٦٠ .
(٢) أشعاره : ص١٠٩ .
(٣) أشعار ه : ص ٧٠-٧١ .
(٤) أشعاره : ص١٠٨ .
(٥) اشعاره : ص ٣٦

الزمان والمكان

إن تعلق الشاعر بالمكان واحساسه بفاعليته وتأثيره على نفسه ، جعله يذكر اسماء بعض الاماكن التي شكلت جزءاً من حياته الفكرية والاجتماعية ، فكان لها في نفسه مكانة خاصة مما يدل على حبه لها، وكما يقول باشلار «فانه على الانسان ان يحب المكان ... حتى يصبح بالامكان احتواء مشهد كامل داخل ذرة من الرسم» (١) .

فالمكان عند الشاعر مكان يعبر عن معايير فلسفية تجمع في باطنها ضديات مختلفة فيرى فيه الحياة والموت ، فعلى صعيد الحياة يعبر المكان عنده عن الاستواء النفسي والراحة والطمأنينة أما على صعيد الموت فقد يكون سبباً في تباعد الجماعات وتفرقها « كنا نحل به ونحن بغبطة »(٢).فلا يحفل الشاعر بالمكان الا بما يقدم له من منافع ويخدم مصالحه الدنيوية الفردية والجماعية ولذلك فقد أكثر من التعبير عن هذه الرؤيا من خلال معادلة المكان للحياة فيقول :

بين الخورنق والسديـر محلّة ... للهو فيها منزلٌ مطموسُ
فالنـد من ريحانها متضوّع ... والظهر من غزلانها مدحوس(٣)

ولكني أعتقد ان بحث الشاعر المستمر عن مكان يعيش فيه ساعة اللذة شريطة ان يكون مكاناً مغلقاً لا مفتوحاً (للهو فيها منزل مطموس) كافية للتدليل على احساسه بالموت (موت الاخر) الذي يعني هروب الذات من الواقع والخوف من المجهول الذي ينتظره .

ولكن جدلية الحياة والموت قد بدت واضحة عنده عبر الحركة الدائرة المستمرة لها من خلال الطلل :

---

(١) جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٨٧ .
(٢) أشعاره ، : ص٧٣ .
(٣) أشعاره : ص٧٣ . وانظر ص٣٦ .

يا دار مالك ليس فيك أنيسُ الا معالم آيهُنَّ دُروس
طللُ مَحت أيُ السماء رسومه فكأن باقي مَحوهنَّ دروس(١)

فعكس الطلل ثنائية متزامنة فموت الحيوان حياة للانسان ، في الوقت ذاته فإن موت الانسان (الرحيل)او الاندثار (صورة الطفل) حياة للحيوان يمرح ويلعب فيبني مجتمعه ويؤسس حياته فيصبح صاحب السيادة ،ولهذا فقد عبر عن المكان وحبه بما يحقق له من سعادة وتحقيق ذات .

إن حب الشاعر للمكان جعله يرى فيه العطاء والخصب اللذين يساهمان في تشكيل حياة الانسان وتوضيح مسارها عبر الارض والعمل وكما يقول باشلار «المكان يدعونا للفعل ،ولكن قبل الفعل ينشط الخيال ،ينقي الارض ويحرثها»(٢) فحب الشاعر للمكان جعله يسعى سعي الدؤوب في الارض ليعمل على تحقيق مآربه على ناقة قوية تقطع المسافات البعيدة ، لا تعرف التعب :

وعُجبت إلى جملٍ بازلٍ رحيب رحى الزور فحلٍ هجان
فعضّيت اعواد رحلي به ونابا ه من زمع يضربان
قطعت به من بلاد الشام خروقاً يضل بها الهاديان (٣)

فتجلى المكان عنده في سعة الامل وانبساطه بما يتناسب مع سعة امال الشاعر الدنيوية ولهذا كانت الامكنة عنده مفتوحة لتتناسب وحجم الامل الكبير الذي يسعى اليه الشاعر ،فكانت ارض الممدوح (البلاد والخروق) هي الامل والعمل وهي الارض الصالحة لمثل هذه الافكار النظرية الخاصة بفلسفة الشاعر في العمل. فمثلا (بلاد الشام) منطقة واسعة الانتشار مترامية الاطراف (يضل بها الهاديان).

كما تشكل المكان عنده من خلال عالم الاسرار ، فالحفاظ على السر وعدم افشائه كالمكان الصلب الذي لا يستطيع احد ان يأتيه لا من خلفه ولا من امامه.

(١) أشعاره : ص ٧٠-٧١ .
(٢) جماليات المكان ، ص٤٩ .
(٣) أشعا ره : ص١٠٩ - ١١٠ . (الخروق : الارض الواسعة ، الزمع :الدهش) . وانظر ص٣٧ .

ضع السر في صماء ليست بصخرة صلود كما عانيت من سائر الصخر (١)

إذن فالشاعر قد تعامل مع المكان على انه جزء من تشكيل الانسان العقلي والفكري ليساهم في بنائه الحياتي اليومي وخبراته المكنونة .

اما الزمان فكان احساس الشاعر به كبيراً ايضاً ، لأنه كان السبب المباشر في كل ما اصابه من مصائب وشيب فهو سبب ظلمه وانتقاصه حقه :

يا ايها الدهر اقصر عن تنقُّصِنا فلستَ منتهياً عن غشْمنا ابداً

اضحى سنانُ قناتي بعد حدّته مرُت به عثراتُ الدهر فانقصدا (٢)

ففاعلية الزمن عنده كانت سلبية فكان ذاماً له كارهاً لاحداثه (دهرٌ تهر الناسُ أيامه كلب) (٣) .

ولذلك فقد شكل هذا الموقف السلبي عنده قوة العتاب واللوم والتقريع للدهر لايمانه بأنه متقلب خؤون لايدوم على حال ، مهلك لبني البشر وفنائهم ، كما انه سبب فراق الأحبة وخلو الديار من اهلها :

تربع في اطلالها بعد اهلها زمان يُشيبُ الشملَ في صرفه عجبْ (٤)

وقوله :

نحس الزمانُ بأهله فتصدعوا إن الزمان بأهله لنحوسُ (٥)

فيؤكد على أن الزمان نحس ليس له الا هذا الوجه الغادر ، فيغدر من يأمن جانبه .

فالزمان السلبي الغادر هو الطلل الداثر الممحو الايات والمعالم الذي تشكل فوقه الحياة والموت فالحياة للحيوان والموت لبني الانسان .

---

(١) أشعاره : ص٦٤ .
(٢) أشعاره : ص٥١ .
(٣) أشعاره : ص٣٦ .
(٤) اشعاره : ص ٣٤ .
(٥) أشعاره : ص١٨ .

كما ان الزمن عنده نذير شؤم وخراب فهو كالغراب لا يبشر الا بالخراب (البلى والشتات) .

خفـــق الـــدهر فـــوقها بجنـــاحيـــن مريشيـــن بالبـلى والشّتات (١)

ولذلك نراه يعترف بانتصار الزمن عليه وقصوره عن الوقوف في وجهه ، فقد تعددت المصائب التي اوقعها به ، فصير الشيب في رأسه (ورمى سواد قرونه ببياض)(٢). ولكن على الرغم من احساس الشاعر بفاعلية الزمن السلبية الا انه يرى فيه بعض وجوه الخير التي تعكس الفاعلية الايجابية عنده ، وقد جاءت هذه الصورة عند حديثه عن الخمر ومجالس اللهو فهو الذي يجلو وجه الخمر فيجعلها ناصعة متلألئة :

ربيبةُ احقـــاب جـــلا الدهر وجهها فليس بهـــا الا تلؤلؤهـــا ندب (٣)

ولذلك يعمل الزمن على تعتيق الخمر فيستلذ بشربها وتزداد بذلك فرحته. ويجمع الشاعر بين صورتي الزمن الايجابية والسلبية من خلال شريحة الطلل التي تعكس الحياة والموت في آن واحد بشكل ثنائية ضدية «الزمن بحركته الارتدادية ظرف (العمل) الانساني الذي يستخلص من الموت حياة ومن الحياة موتاً وعلى هذا يكون الطلل نقطة عبور للزمان من الماضي إلى المستقبل(٤)». فهو موت واندثار لعالم الانسان وحياة لعالم الحيوان فغياب الانسان عن الديار يستدعي حضور البديل (الحيوان) ليشكل عالماً قائماً بذاته .

كسا الـــدهـــر بـرديـــها البـــلى ولربما لبسنا جديديها واعلامنا قُشُبْ
فغيّـــر مغنـــاهـــا ومحّـــت رسومـــها سماءٌ وارواح ودهر لهـــا عَقَبْ
تبـــدلت الظّلمـــان بعـــد انيسهـــا وسوداً من الغربان تبكي وتنتحبْ (٥)

---

(١) أشعاره : ص٤٥ .
(٢) أشعاره : ص٧٥ .
(٣) أشعاره : ص٣٥ . (الندب : آثار الجروح) .
(٤) الصورة والرؤية عند زهير بن ابي سلمى ، د. عبدالقادر الرباعي ، ابحاث اليرموك ، المجلد الاول ، العددان الاول والثاني ، ١٩٨٣ ، ص١١٤ .
(٥) أشعاره ، : ص٣٣-٣٤ . وانظر ص٧٠ (الابيات الستة الاولى) .وانظر ص٧٥

إن حتمية الوجود لعالم الانسان وعالم الحيوان امر يستدعي حضور احدهما وغياب الاخر كي يشعر كل طرف بطمأنينة وسكون.

لقد عبر الشاعر عن فلسفة للزمن خاصة به تولدت لديه من حياته الخاصة وتجاربه الذاتية ولاغرابة في ذلك اذا كنا نعتقد ان حتمية الوجود الانساني تفرض عليه التعامل مع الزمن والايمان بقدرته وتقلباته فهو المسير لكل حركاتنا وسكناتنا «لان الزمن او الدهر كالظرف الخارق السعة تتحرك داخله الكائنات الحية وتقع في فضائه الوقائع فليس ثمة موت او حياة ولا سكون او ثبات ولا آلام او مسرات خارج هذا الظرف» (١).

الخير والشر

فالخير هو كل امر محبوب تألفه النفس ويجلب لها النفع والراحة والطمأنينة اما الشر فهو كل ما نفرت منه النفس وسبب لها الأذى والسوء. لقد تعامل الشاعر مع هذين المفهومين على انهما اساس الحياة البشرية ومصدر التصرفات الانسانية ومحور العلاقات الاجتماعية بين الناس، ولذلك فقد رسم للخير صوراً جميلة يكسب من خلالها اللذة والسعادة، فهي عنده وجه جميل، وشراب عذب وغصن مورق وعيون حوراء ساحرة (٢). ولذلك فقد جاءت هذه الصور من باب المحسوسات المادية لأنه لا يؤمن الا بما تقع عليه عينه وتجلب له النفع والمسرة.

كما جاء الخير بمعنى العمل الصالح الذي يسعى اليه الانسان في حياته فيجتنب الموبقات والاعمال القبيحة:

ولقد علمت بأنني رجلٌ في الصالحات اروح او اغدو
ومجانبٌ فعلَ القبيح وقد وصلَ الحبيبُ وساعد السعدُ (٣)

(١) الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام، د. عبدالاله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص٦١.
(٢) أشعاره: ص١٣٨/١، ص٣٥ (البيت السادس) ص ١٠٦/٤، ص ١١٥/١.
(٢) أشعاره: ص١٤٣.

ولذلك يبدو – على الرغم مما عرف عنه من حب للهو والمجون والمجاهرة– ان الخير عنده يعادل لحظة قصيرة يعيشها مع نفسه يراجع فيها نفسه فيحاسبها ويعذبها لتعود إلى فطرتها ، فكانت صور الخير ومعانيه عاطفية في غالبها لا عقلية، سريعة الزوال والانكشاف ، وهذا ما يؤكد ان الشاعر يعيش صراعاً داخلياً بين ذاته والمجتمع ، لكن قوى الشر تتجاذبه وتطغى على فكره :

فورعني بعد الجهالة والصبا من الجهل عهدٌ بالشبيبة قد ذهب (١)

فالفعل (ورعني) يكشف عن انزياح الفعل عن معناه الاصلي الذي وضع له فتعدى كي يصبح ذا دلالة جديدة تتعامل مع منطق القوة والقسرية . ولأن الخير عنده نفعي ذاتي ،فنراه يربطه بكل امر محبب للنفس البشرية ، فهو يساوي النوال الصادق من خليفة حازم عربي النسب :

ملك لا يصرف الامر والنهي له دون رأيه الوزراءُ
ما لهارون في قريش كفيءٌ وقريشٌ ليست لهم اكفاء
وسعت كفه الخلائق جودا فاستوى الاغنياء والفقراء (٢)

كما رأى الخير وعبر عنه من خلال إقامة العلاقات الاجتماعية والتواصل الاجتماعي لتنوية الأواصر بين الناس وخاصة مع الاوفياء الصادقين الذي هم عنده كالبحر في العطاء والكرم ، وهم رجال المواقف والشدائد :

ما هبت الريح إلا هب نائله ولا ارتقى غاية إلاتخطاها
إذا أخذت بجبل من حبائله دانت لك الأرض اقصاها واعلاها(٣)

كما عبر عن صور الخير من خلال مبدأ القناعة والرضى والقبول بما يكتب للانسان ما دام الرازق هو الله والمعطي هو الله :

لكل امرىء رزق وللرزق جالبُ وليس يفوت المرءِ ما خطّ كاتبه

(١) أشعاره : .ص٣٦ .
(٢) أشعاره : ص٢٩ .
(٣) أشعاره : ص١١٤ .

يُساق إلى رزقُـه وهـو وادعٌ ويُحرُم هذا الرزقَ وهو يُطالبه (١)

فالقناعة عنده هي عدم الاسراف والتبذير وحفظ الاموال وصرفها في وجوهها المباحة .

كما عبر عن الخير من خلال مفهوم العمل الشريف والسعي الحثيث ليستطيع تحقيق ذاته على الصعيد الاجتماعي لان العمل عنده شعار جماعي وواجب يحتم على الانسان ممارسته بصبر وتضحية لان لذة العمل لا يعرفها الا من يكابدها :

وليـل تـركـب الـركبـا ن في اجـوافـه الخُضر
بارض تُقطـع الحـيـر ةُ فيهـا بالقطـا الكُـدر
تمسكـتُ عـلى اهـوا لها بـالله والصبـر (٢)

فالخير هو الصبر على الشدائد وقوة الارادة في الوصول إلى الاهداف التي ترسمها الذات الانسانية وتطمح إلى تحقيقها وذلك من خلال مشهد الرحيل إلى الممدوح فيقطع المسافات الطويلة والصحاري المترامية على نوق قوية صلبة .

قطعـوا اليـك رياض كلّ تنـوفـة ومهامـه مُلس المتون عراض
اكلَ الوجيف لحومَهـا ولحـومهـم فاتوك انقـاضاً على انقـاض (٣)

كما اتخذ الخير عنده صورة التضحية بالنفس وذلك من خلال رثائـه لمحارب قتل على ارض المعركة :

ختلتـه المنـون بعـد احتيـال بين صفّين من قنـاً ونـصال
في رداء من الصفيـح ثقيـل وقميص مـن الحديد مُذال (٤)

أما الشرّ الذي يسبب الأذى للنفس فقد أكثر من الصور المنفرّة له ، فالشرّ

(١) أشعاره : ص٣٢ .
(٢) أشعاره : ص٦٣ .
(٣) أشعاره : ص٧٧ .
(٤) أشعاره : ص٩٣ .

هو الخداع والنفاق والرياء الاجتماعي فسيطرت هذه المظاهر على الافراد في تعاملهم فيما بينهم لذلك عبر عنها من خلال حديثه عن صديق له جفاه بعد أن نال رتبة عند السلطان :

ياليت شعري حتى تجدي عليّ وقد أصبحت ربَّ دنانيرٍ واوراق
تجدي عليَّ اذا ماقيل من راق والتفت الساق عند الموت بالساق
يومٌ لعمري تهمُّ الناس أنفسُهم وليس تنفع فيه رُقية الراقي (٢)

كما أن الشرّ عنده هو تمرد الذات وخروجها على المألوف واعطاء النفس هواها دون مراعاة لحدود وقيود ، فهو الحرية المطلقة التي لاتخضع لقيود :

أصيب الذنوب ولا أتقي عقوبة مايكتب الكاتبان (٣)

ولكن تعامل الشاعر مع هذين المفهومين ، جعله يعيش القلق والثبات في آن واحد نتيجة الصراع الذي يعيش في داخله بين رغباته الدنيوية والاعداد للاخرة ، فهو في بعض الاحيان مؤمن خشوع قنوع ، يخاف الله ويخشاه وفي أحيان أخرى ، ثائر متمرد يبحث عن الفسق والمجون ويبدو أن هذا القلق والصراع هو نتيجة للتمازج والانفتاح الحضاري الذي عاشه الفرد في العصر العباسي اضافة للفقر والحرمان والقهر والاستلاب الفكري الذي يسيطر على فئة من الناس (٣). ويتجلى هذا الصراع في قوله :

أعلل أمالي بكانت ولم تكن وذلك طعم السُّم والشهدُ في الكأس (٤)

ففي الوقت الذي تعمل الخمر على إدخال السرور الى نفسه كالشهد في حلاوتها ، لكنها تجمع في ذات الوقت الموت فهي سم تعقد لسان شاربها وتصرعه حتى لاحراك به (عقل الزجاج لسانه وتخاذلت رجلاه (٤) وكأنما مج الردى في كأسه الفاعوس (٥).

---

(١) أشعاره : ص٨٦ ، وا نظر ص٥٢ .
(٢) أشعاره : ص١٠٨ .
(٣) حديث الاربعاء ، ٢ : ٢٧-٢٩ ، وانظر : تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الاول ، د. شوقي ضيف ، ص ٤٤-٤٨ .
(٤) أشعاره : ص٧٤ .
(٥) أشعاره : ص٧٤ الفاعوس : الحية .

ورأى الشر في الشيب الذي يصد النساء عن منادمته ومصاحبته :

اثنان لاتصبو النساء اليهمـــــــا ذو شيبة ومحالف الإنفاض(١)

الحب والفراق

شكل هذا الموقف عند الشاعر حيزاً كبيراً، استطاع من خلالهما أن يجسد نظرته الخاصة للحياة وكيفية التعامل معها فرأى الحب في عين ساحرة جميلة:

يرمين البابَ الرجـال بأسهـــــم قد راشهن الكحل والتهذيب(٢)

كما رأى الحب في الرائحة الطيبة التي تنبعث من امرأة جميلة :

يا ابنـة عـم المسك الزكيّ ومـــــن لولاك لم يُتخذ ولـم يَطـــب

ناسبك المسك في السواد وفي الـــرْ يحِ فأكرمْ بذاك من نسب(٣)

وقد عبرَ الشاعر عن الحب من خلال الشباب عالم العيش الرغيد الذي يسري عن النفس فيبعد عنها الهموم والاحزان :

فيـا عيشَنـا والهوى مُـــــورِقٌ له غُصُـنٌ أخضر العود دان

لعـل الشبـابَ وريعـانَـــــــه يُسودُ مابيـض القادمان(٤)

ويؤكد الشاعر على أهمية الحب وضرورته لنماء الحياة البشرية واستمرارها شريطة ان يسود مجتمع المحبين الأخلاص مع الوفاء والصدق .

لـــم تنصفي ياسميـة الذهـــب تتلف نفسي وأنت في لعب (٥)

وذلك حتى يحس الانسان بالتوحد مع ابناء جنسه وذاته، فالحب يبعد الاحساس بالغربة عن المحبين .

والحب هو كأس خمر يشربها فتجري في عروقه ودمه لتعمل على إدخال السرور الى نفسه منتقلة الى عالم أكثر صفاء وطهارة :

---

(١) أشعاره : ص٧٦ (الانفاض : الفقر) .
(٢) أشعاره : ص٣١ .
(٣) أشعاره : ص٤٢ .
(٤) أشعاره : ص١٠٦ .
(٥) أشعاره : ص٤٠ .

أمـــا وحُرمـــة كأس مـن المـدام العتيـــق
وعقـــد نحُـــر بنحـــر ومزج ريـــق بريـــق
لقـد جرى الحبُّ منـــي مجرى دمي في عُروقـــي (١)

ولكنه يوسع من مدلولات الحب، فهو الحياة بمتناقضاتها وأشكالها المختلفة ولذلك فالانسان لايستطيع أن يعيش بدونه ، كما أنه على الانسان أن يسعى للحصول على الحب من الآخرين فيضحى ويتحمل مايلاقيه في سبيل هـذا المفهوم :

وقف الهوى بي حيثُ أنت فليس لي متأخّر عنه ولا مُتقـدّم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً مامن يهون عليك ممن يُكرمُ
أشبهـت أعدائي فصرتُ أحبهم إذ كان حظيَ منك حظيَ منهم
أجدُ الملامةَ في هواكِ لـذيـذة حبّاً لذكرك فليلُمني اللُّوم(٢)

فالحب مدرسة متنوعة المعارف ، يعيش فيها الانسان فيكتسب الخبرات والمعارف المختلفة، وهو قدر الانسان لاارادة له فيه فلايستطيع أن يتعالى عليه أو يتخطاه، ولذلك فعلى الانسان ان يتحمل مايلاقيه في سبيل الحبيب من أذى ولوم، ولان اللوم يذكي نار الشوق في داخل المحبين ، فهم يتمنونه ويرغبون به مهما كانت شدته، كما أن الحب من خلال رؤية الشاعر له لايخضع لحدود ولا طبقيات، فتختفي في ظلاله الطبقية والتمايزات، وبذلك نراه يحب أعداءه لأنهم يشبهون حبيبته في التنكر وقطع الوصال والاهانة وهذه الصفات هي صفات العدو ومع هذا يحب من فيهم هذه الخصال اجلالاً لشأنها واعترافاً بحظه السيء معها، كما هو الحال مع اعدائه الذين يكيدون له ولكنه متسامح ، متساهل معهم لا يؤذيهم .

ولأن الحب مدرسة فقد تحدث عن بعض مظاهر الحب أو بعض عناصره الأساسية كالرسول الذي يستخدمه المحبون فيما بينهم :

---

(١) أشعاره : ص٩١ .
(٢) أشعاره : .ص ١٠١-١٠٢ .

جاء الرسولُ ببشرى منك تطمعني فكان أكبر همي إنه وَهَمـــا
فما فرحتُ ولكن زادنـــي حزَنا علمي بان رسولي لم يكن فهما(١)

وتحدث عن الرقيب الذي يحول دون لقاء المحبين أو يحول دون اتصالهما بلغة العيون الخفية :

ونظـرة عيـــن تعللتُهـــــا حذارا كما فعل الأجوَلُ
تقسمتهـا بيـن وجـه الحبيـــب وطرف الرقيب متى يغفَـل (٢)

وجسد من خلال فهمه للحب الحديث عن الغدر وعدم الوفاء بالوعد من قبل المرأة لان وعودها كالبرق الخادع الذي لاحياة به :

فوعودهن إذا وعدنـك باطـل وبُـروقهـن كواذبُ لايماض(٣)

وعدو الحب هو «الفراق» الذي يمثل الجانب السلبي للحياة، فتجتمع تحت هذا المفهوم صور الألم والحزن والهجر والفراق والوداع شأنه في ذلك شأن الموت ولذلك نراه يرى الفراق في تولي الشباب وظهور الشيب الذي يعلو رأس الانسان :

الى أن رمى بالأربعيـنَ مُشيبُهـــا ووقرني قرعُ الحوادث والنكب
وكفكف من غربي مشيب وكبـــرَةٌ وأحكمني طولُ التجاربِ والأدب(٤)

ويعبر عن الفراق من خلال بعض المظاهر الاجتماعية المألوفة عند أبناء العصر الواحد كالنفاق والرياء والخداع ، تلك المظاهر التي تعكس القيم السلبيـــة للمجتمع ، وتشير الى تحلل الناس من القيم الانسانية الاصيلة كالصدق والاخلاص والوفاء ، وقد جاءت عنده هذه المعاني عند معاتبته لأحد أصدقائه وصاحبٍ كان لي وكنتُ لـــه أشفقَ من والدٍ على ولـــد
حتى اذا دانت الحوادثُ مـن خطوي وحلّ الزمان من عقدي
أحولّ عني وكان ينظر مـــن عينيّ ويرمي بساعدي ويدي(٥)

والفراق هو الغربة التي يحس بها الانسان نتيجة عوامل ذاتية يعيشها فيشعر

(١) أشعاره : ص١٠٤ .
(٢) أشعاره : ص١٠٠ .
(٣) أشعاره : ص٧٦ .
(٤) أشعاره : ص٣٧، وانظر : ص ٣/٧٦ .
(٥) اشعاره : ص٥٢.

بالقلق والانعزالية .

كأنّ بلاد الله في ضيق خاتمٍ عليّ فما تزداد طولاً ولا عرضاً (١)

ولذلك كان يكره الفراق ويتضح ذلك من خلال رثائه لبعض اجزاء جسمه التي فقدها، فعندما أصيب بالعمى بكى عينيه :

يانفس بكي بأدمُعٍ هُتُنِ ووا كفِ كالجمان في سنَنِ
على دليلي وقائدي ويدي ونُور وجهي وسائس البَدَن
أبكي عليها مخافةً أن يقرنني والظلام في قَرَنِ (٢)

ولكن قدرة الشاعر على رسم معالم الحب والفراق جعلته يجمع بينهما في لحظة واحدة ، فيعيش موقفين متناقضين في زمن واحد ، وهذا الزمن من أعسر اللحظات على النفس البشرية وذلك من خلال رثاء هارون الرشيد ومدح أبنه الامين :

جرتْ جوارٍ بالسعد والنحس فنحن في وَحشةٍ وفي أُنس
العينُ تبكي والسنّ ضاحكةٌ فنحن في مأتمٍ وفي عُرُسِ (٣)

ونستطيع القول أن الشاعر شكل رؤيا فلسفية خاصة عبر منظومته الشعرية فكانت هذه الرؤيا الاساس في فهمه للوجود كما كانت وسيلته لتحدي الحياة والعيش فيها ، فبرزت على شكل مجموعة من العلاقات المتشابكة المتداخلة وتمثلت في الحياة والموت والخير والشر والمكان والزمان والحب والفراق .

ولذلك فقد رفض الموت وعاش الحياة بزخرفها وزينتها ، كما نبذ الزمان وتعلق بالمكان المتحرر المنعتق من قيود الزمن القاسية ، هذا المكان الذي جعله يبحث عن الحب ويسعى اليه ويكره الفراق ويخشاه ، لأن الفراق والزمان يلتقيان في زوال لحظة الوجود الانساني. كما ان بحثه عن المكان المنطلق جعله يسعى الى الشر ويحجم عن الخير لما في الشر (اللذة واللهو والمجون) من تحرر واباحية غير خاضعة للقيود والاوابد بينما الخير يخضع لقيود وقوانين وقواعد تحد من الحركة والتحرر .

---

(١) أشعاره : ص٧٩ .
(٢) أشعاره : ص١١١ .
(٣) أشعاره : ص٦٨ .